مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

ابن النفيس

طبيب رائد وناقد للطب القديم(*)

الدكتور، عبد الكريم أبو شويرب
أستاذ مساعد. قسم الأطفال. كلية الطب
جامعة الفاتح للعلوم الطبية. الجماهيرية العظمى

أعتقد أنه قبل أن أبدأ في إلقاء بحثي لا بد أن أشيد بالمبادرة الطيبة التي سنتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أسيسكو) وذلك على درب إحياء التراث الطبي العربي الإسلامي وتشجيع البحث والتنقيب فيه، ولا بد أن أثني على اختيار موضوع الاحتفاء بمناسبة مرور سبع مائة سنة على وفاة الطبيب المسلم ابن النفيس وأنها لبادرة جيدة أن نرى الاحتفاء بطبيب مسلم مشرقي يقام في بلد مسلم مغربي نرجو أن تكون هذه فاتحة لنرى أمثالها في المستقبل كأن نرى الاحتفاء بابن الجزار أو الزهراوي أو ابن رشد في بغداد أو دمشق أو نرى احتفاء بالرازي أو ابن سينا أو عبد اللطيف البغدادي أو ابن بطلان في طرابلس أو القيروان أو طنجة من بلاد المغرب، وهذا ولا شك مما يربط مشرق هذا الوطن بمغربه ويقوي جذوره وتراثه المشترك ومما يزيد دعم ونشر هذا التراث الإنساني المجيد.

(*) (ألقي هذا البحث في ندوة «الاحتفاء بمرور سبع مائة سنة على وفاة الطبيب المسلم ابن النفيس» الرباط 1988/7/3م.

وبالنسبة للطبيب المسلم ابن النفيس لقد لاحظنا أننا بعد كل بضع سنوات نكتشف شيئاً جديداً لابن النفيس، وذلك نتيجة القراءات المتأنية الجديدة لمخطوطاته وتفسيرها حسب منطق ونظريات العلم الحديث. . وبعد اكتشاف دور ابن النفيس في وصف الدورة الدموية الصغرى وأنه أول من وصفها الوصف العلمي الحقيقي نجد الآن الكثير من المعاهد العلمية وكليات الطب تقبل هذا الاكتشاف وتقره ويسجل ضمن مقرراتها الدراسية الجامعية. كما نجد اسم ابن النفيس يأخذ مكانه مع العباقرة والعلماء والمكتشفين في العالم.

ترجمة حياة ابن النفيس:

علاء الدين أبو العلاء علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي[1]، طبيب عالم ومتضلع في شتى الفنون الإسلامية، ذو ثقافة واسعة، كان بالاضافة لتخصصه في الطب محدثاً وفقيهاً مرموقاً، ولغوياً وفيلسوفاً مطلعاً.

ولد بدمشق سنة 607هـ/1210م بقرية قرش (القرشية) وإليها ينسب، وتعلم بدمشق حيث قضى شبابه طالباً مجداً ثم درس الطب بها على مهذب الدين المعروف بالدخوار (متوفى سنة 628هـ/ 1230م) أحد تلامذته ابن التلميذ الذي تخرج على يديه الكثير من طلاب العلم حيث هاجر بعضهم من بغداد إلى دمشق.

وبالاضافة إلى الطب درس ابن النفيس النحو والمنطق وعلوم الدين وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث أسند إليه منصب الطبيب الرئيس لمصر وهو منصب مهم جداً قبل أن يصبح الطبيب الشخصي للسلطان بيبرس الأول.

ويفترض أنه عمل في المستشفى الناصري حيث قام بالتدريس للعديد من طلبة الطب كان أشهرهم ابن القف الذي ألف فيما بعد كتاباً مشهوراً في الجراحة.

كما ألقى دروساً في مدرسة المسرورية، وكان من بين طلابه أبو حيان

---

(1) العمري/ ابن فضل الله: مسالك الأبصار في أخبار ملوك الأمصار (مخطوط) ص 225.

الغرناطي الذي أخذ عنه علم المنطق وامتدح طريقته في التدريس، كما أطرى اللغوي ابن النحاس الذي عاصره أسلوبه في تعليم النحو.

واجتمعت له ثروة وبنى بها لنفسه منزلاً فخماً في القاهرة وتوفي بها سنة 687هـ/1288م عن عمر يناهز الثمانين عاماً واهباً داره وثروته وكتبه للمستشفى المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون والذي انتهى بناؤه في 683هـ/1284م[2].

كان ابن النفيس مشهوراً بطريقته الخاصة في العلاج، فكان لا يغير من نهجه المعتاد، وكان لا ينصح قط بعلاج إذا كانت الحمية كافية، ولم يعرف دواء مركبا إذا كان بإمكانه استعمال عقار بسيط.

وكان نشاط ابن النفيس في مجال الأدب مكثفاً واسعاً، وبالرغم من أنه كان ناقداً دقيق الملاحظة، إلا أنه كان مستقل التفكير واسع المعرفة.

وقد عاش ابن النفيس حياته كلها من أجل مهنته. وكان غزير الإنتاج منصرفاً كلية لعلمِهِ وبحوثه. حتى أنه انصرف عن مباهج الحياة ومتطلباتها. وقد عزف عن الزواج حتى لا يشغل عن العلم. وجعل جل اهتمامه جمع الكتب والقراءة والكتابة وقد ترك تراثاً علمياً ضخماً ومنوّعاً في فروع العلم الطبية والفقهية.

ويروى أنه في مرضه الذي توفي منه قد نصحه طبيبه بتناول قليل من النبيذ. لكن ابن النفيس رفض ذلك قائلاً: «لا أريد أن ألقى الله وفي بطني شيء من الخمر»، ولا شك ان هذا الموقف يدلنا على مدى عمق إيمان هذا العلامة وتمسكه بالدين الحنيف.

أهم اكتشافات ابن النفيس:

إن أهم ابتداعات ابن النفيس في حقل الطب تتمثل في نظريته حول الدورة الدموية الصغرى أو الدورة الرئوية للدم الذي ينطلق من البطين الأيمن عبر

(2) غليونجي/بول: ابن النفيس، سلسلة أعلام العرب. ص 212.
(3) ابن النفيس/علاء الدين: شرح تشريح القانون (مخطوط).

الشريان الرئوي إلى الرئة ثم يعود إلى البطين الأيسر للقلب عبر الوريد الرئوي.

وبهذه النظرية التي تناقض بوضوح الأفكار التي نشرها جالينوس وابن سينا زرع ابن النفيس البذور الأولى لاكتشافات (وليم هارفي)، إلا أنه انتهى إلى ذلك بالفكر المجرد بعكس هارفي الذي توصل إلى اكتشافه عن طريق التجربة، وصاغ عليه نظريته، غير أن هذه النظرية العجيبة أغفلت تماماً، ربما بسبب طبيعتها غير المألوفة من قبل الكتاب العرب اللاحقين باستثناء ناقد مجهول لكتاب القانون في الطب أيَّد ثقافة ابن النفيس فيما ذهب إليه في نظريته.

أهم مؤلفاته:

1 ـ الكتاب الشامل في الطب.
2 ـ المهذب في الكحل (في أمراض العيون)(*).
3 ـ شرح تشريح القانون(**).
4 ـ الرسالة الكاملية (وغيرها من الرسائل).
5 ـ الموجز في الطب.
6 ـ شرح القانون لابن سينا.
7 ـ شرح فصول أبقراط.
8 ـ بغية الطالبين وحجة المتطببين.
9 ـ كتاب النبات في الأدوية المفردة.
10 ـ شرح مسائل حنين بن إسحاق.
11 ـ رسالة في أوجاع البطن.
12 ـ كتاب الشافي.

لقد شرح ابن النفيس كتاب القانون في الطب في عشرين مجلداً شرحاً وافياً مستفيضاً وذلك للمتعمقين والعلماء والباحثين كما أوجز هذا الكتاب في أربعة

(*) وقد قام الدكتور ظافر رجائي بتحقيق هذا المخطوط، وطبع بإشراف منظمة الايسكو 1988م.
(**) كما قام الدكتور سليمان قطاية بتحقيق هذا المخطوط ونشره 1988م.

مجلدات بدل خمسة وهذا العمل هو أشبه ما نسميه اليوم بالملخصات المشهورة ويقول: قصدنا في هذا الكتاب أن نشرح القانون مع الايجاز والافصاح وأن نبين كل الصحيح إلا الرث الشاذ وهذا العمل يكاد يكون كياناً مستقلاً عن الأصل لما يحويه من أفكار أصيلة ونظريات وآراء لابن النفيس. فهل نسبه لأستاذه لمجرد الاعتراف بالحق الأدبي أم ليسهل قبوله وتداوله بين طلبة الطب؟

وفعلاً لقد انتشر استعمال الموجز انتشاراً كبيراً ونسخت منه مئات النسخ في العالم بل تعدى الأمر إلى ظهور شروح وتفصيلات له. وأشهر هذه الشروح: «شرح تفسير ابن عوض الكرماني» (توفي سنة 849هـ/1449م) المسمى «شرح الموجز لابن النفيس» ومن الشروح أيضاً: الموجز وحلّ الموجز والمغني وغيره. وترجم الموجز إلى التركية والعبرية أيضاً. وهذا يدل على تعمق في العلم وريادة في مجال الطب وطبعاً هو ابن النفيس القائل: لو لم أعلم ان تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها»[4].

والحقيقة أن لابن النفيس مآثر أخرى وإضافات ونظريات علمية ربما كشف عنها الزمن تدريجياً وبالقراءات المتأنية لتصانيفه ورسائله.

ولكن ما أود طرحه الآن هو ابن النفيس الناقد المصحح لمن سبقه من علماء وأطباء، وثانياً ابن النفيس: المتجرىء والمتجاسر بإعلان الخطأ حتى لو كان ذلك صادراً من أبقراط وجالينوس، وثالثاً: أن ابن النفيس رغم هذا النقد والتطاول وشدة الثقة بالنفس فهو يحترم أساتذته ويقدر رأي زملائه ويُعَدُّ مثالاً لتطبيق الآداب الطبية وأصول هذه المعرفة.

فبالنسبة لابن النفيس الناقد المصحح يتضح ذلك من قراءة كتاباته وآرائه وهو القائل في مقدمة شرح التشريح: «إننا نعتمد في تعريف منافع الأعضاء على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه»[5].

---

(4) مرجع سابق رقم1 .

(5) مرجع سابق رقم 3.

ولنقرأ ما يقول ابن النفيس (أيضاً من كتاب شرح التشريح) وهو ينتقد ويصحح نظرية وجود ثقب بين بطين القلب وهو الأمر الذي كان معروفاً قبله، يقول: «وإذا لبث الدم في هذا التجويف (البطين الأيمن) فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح (وطبعاً يقصد بالروح هنا الدم النقي الذي تشبع بالأكسجين وحقيقة أن الأكسجين هو روح الدم)(*) ولكن ليس بينهما منفذ فإن جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس، فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ»[6].

وبهذا الشكل المهذب ينتقد ابن النفيس الخطأ العلمي ويقدم طرحه ونظريته الجديدة والتي تأكد منها بعد المشاهدة الملموسة والمنطق العلمي ثم لنرى كيف يصحح «ابن سينا الذي قال بأن في القلب ثلاثة بطون[7]: يقول ابن النفيس «قوله وفيه ثلاثة بطون، وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ولا منفذ بمن هذين البطنين البتة، والتشريح يكذب ما قالوه»[8].

وفي وصف الشريان التاجي/ الاكليلي ونفي أن القلب يتغذى من الدم الذي بداخله يقول: «قوله ليكون له مستودع غذاء يتغذى به وجعله الدم الذي في البطين الأيمن منه يتغذى القلب لا يصح البتة فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة في جرمه»[9].

مرة أخرى نفى الخطأ العلمي وطرح مشاهدة منطقية حقيقية، وهكذا فهو

(*) هذا تفسير مجازي لكلمة روح ليس له علاقة بالروح النفسي وابن النفيس يستدرك كلامه ويقول: والأرواح لا نعني بها النفس كما يراد بها في الكتب الإلهية بل جسماً لطيفاً مجازياً فيتكون من لطافة الاخلاط.. الخ (الموجز في القانون).

(6) مرجع سابق رقم 3.

(7) ابن سينا: القانون في الطب (طبعة بولاق) الكتاب الثالث/المقالة الأولى ص 261.

(8) مرجع سابق رقم 3.

(9) مرجع سابق رقم 3.

في كل مواقع النقد والرفض والتصويب يستعمل هذه الجمل: هذا لا يصح، أو هذا باطل، أو لا يجوز وغيرها، في كل مرة يبرز الدليل والمشاهدة الملموسة أو المنطقية لطرحه أو نظريته.

ونأتي الآن لابن النفيس العالم المتطاول على عمالقة الطب مثل أبقراط وجالينوس وابن سينا وغيرهم. لقد اقتنع ابن النفيس أن علوم الطب هي أفكار ونظريات متجددة متطورة، وأنه كلما سنحت للباحث الطبيب فرص أكثر في التشريح والتجربة والخبرة العلمية كلما ظهرت له آراء جديدة وكشفت له أخطاء من سبقه وكلما كان منطقياً سليماً أقرب إلى حقائق العلم يقول: «إن المتأخرين في الزمان أقدر على الإنتاج من السابقين لأنهم يستعينون من خبرات السابقين»[10].

بل إن ابن النفيس اقتنع أن آراء أبقراط وجالينوس هي آراء تجاوزها الزمن وأنها تقيد الباحث وتحد من فهمه لأعضاء الإنسان ووظائفها، واقتنع أن بعض هذه الآراء خطأ وجب التنويه عنه وتصحيحه كلما كانت المناسبة مواتية لذلك. وابن النفيس أنكر صراحة ما لم تره عينه أو يقبله منطق العقل السليم وكان يعتمد على المشاهدة والخبرة في كل جملة يخططها رغم ما تميز به عصره من الإيمان الأعمى بآراء أبقراط وجالينوس وابن سينا الأمر الذي استمرَّ حتى أوائل عصر النهضة المعروفة.

وفي كتابيه شرح التشريح والموجز العديد من المقاطع والجمل التي يعترض فيها على الآراء الخطأ ويقول قال جالينوس أو أبقراط ويقول: وهو عندنا باطل.. الخ[11].

وأخيراً نأتي الآن لابن النفيس المثال الذي يحترم آداب الطب والمهنة الطبية عملاً بالحكمة القائلة «ان أعلى مراتب العلم هي آداب العلم» والحقيقة أنه وإن تطاول وتجرأ لتكذيب جالينوس أو ابن سينا فإن هذا يقتضيه التصويب والنقد وتصحيح المفاهيم والنظريات العلمية القديمة.

---

(10) ابن النفيس/علاء الدين: الموجز في الطب (مخطوط).
(11) مرجع سابق: رقم 10.

لم نعلم أن ابن النفيس استعمل علمه للتقرب إلى حاكم، أو استغله للنيل من إنسان أو سخر فيما لا يرضاه الضمير أو آداب الطب.

وابن النفيس يعيش على نسخ المخطوطات وبيعها وعرف عنه أنه ينسخ كل سنة كتباً معينة من كتبه ويبيعها، وهذا أمر يتطلب الصبر والجهد والسهر. وابن النفيس تبرع بكل مخطوطاته وأمواله للبيمارستان أي المستشفى الذي يعمل به بمصر[12].

وخلال ذكر جالينوس يقول الفاضل جالينوس أو الفاضلين ويعني أبقراط وجالينوس ويقول الرئيس ابن سينا، كما أنه يجد مبررات لأخطاء جالينوس وذلك زيادة في الاحترام إذ يعزو الخطأ إلى هفوات النساخ في مكان آخر يقول: «إن الفاضل جالينوس لم يتحقق من هذا بالمشاهدة»[13].

وأختتم كلمتي بقصة طريفة حدثت لابن النفيس وقد تصادف أي منا خلال أية ساعة من نهاره فقد اشتكى إليه أحد أصحابه من ألم بيده فقال ابن النفيس وأنا أيضاً أشكو من ألم بيدي. وقال الصديق: فبأي شيء أداويه، فرد ابن النفيس: «والله ما أعرف بأي شيء تداويه،ولم يزد على ذلك أي شيء»[14]. وهذا والله عين الصواب فهو لم يصف أي دواء مسكن أو غير نافع وإلا كان قد استعمله لنفسه فأنعم به من طبيب شريف نزيه مخلص لمهنته. والسلام.

---

(12) مرجع سابق رقم 2.
(13) مرجع سابق رقم 3.
(14) مرجع سابق رقم 2 ص 110.